

المدينة الجزائرية تحولات سوسولوجية وتمايز الفضاء المدني:

قراءة لبعض المقاربات

د. عثمان فگار

أ. محاضر بقسم علم الاجتماع والديمقراطية

جامعة البليدة

ملخص:

إن المقال الذي نقترحه يقوم على قراءة مقارنة لبعض المقاربات التي تناولت ظاهرة الإضطراب العمراني الذي عرفته المدن الجزائرية. عدة تساؤلات ونقاشات حول المدينة والتوجه الذي سارت عليه اليوم، سمحت بتصنيف الحقائق المتعلقة بالتهيئة المحلية المعدة من قبل هيئات التخطيط وأنجز عنها من اضطرابات واختلالات تبرز للعيان مظاهر سوء التجهيز في المناطق السكنية الحضرية الجديدة، الإنشطار السوسيوجمالي إلى غير ذلك من المواضيع التي تستدعي المعالجة .

Résumé

L'article que nous proposons consiste à présenter une lecture comparative de quelques approches portant sur le désordre urbain des grandes villes en Algérie.

De nombreuses interrogations sur la ville traversent les sujets traitant des nouvelles pratiques spatiales issues de l'aménagement spatiales préconisé par l'Etat, la répartition spatiale du fait urbain, les sous équipement des nouvelles zones d'habitation, la fragmentation physique et sociale des espaces etc.... sont autant de sujets thématiques qui méritent d'être exposés.

إن الإضطراب العمراني في المدينة موضوع مازال يثير الكثير من النقاش والكتابات، نظرا للتحويلات العمرانية التي عرفتھا وما انجر عنها أيضا من خلل مادي وإجتماعي، ناجم عن الإحتشادات السكانية، وعن زوال تدريجي للصلات الإنسانية.

إن حالة التعقيدات التي ظهرت على ساحة المدينة اليوم، جعل الدارسين لها يعرضون وجهات نظر ورؤى متباينة، مما جعل الوصول إلى إستنتاجات أمرا على غاية من الصعوبة، في هذا السياق تقر مختلف الدراسات التي تناولت موضوع المدينة، ومسألة الفوضى العمرانية التي آلت إليها على ضرورة إعادة النظر في التعاريف الكلاسيكية التي تعتبر الفضاء المديني مجال مغلق، وكتلة عمرانية متراصة ترسم حدودھا الأنشطة والمجمعات السكنية المبنية، وتلج على تقديم تصورات ومفاهيم أخرى تعكس محتوى التحويلات وواقعھا المعاش.

إن العرض الذي نسوقه ينصب في الواقع في محاولة تقديم قراءة ملخصة لبعض المقاربات، والمفاهيم التي سلطت الضوء على سوسيولوجية التحويلات التي آلت إليها المدينة، من حيث تنظيمھا المجالي وتوزيع مجالاتھا الفرعية وتمفصلھا، ومن هذه المقاربات والأطروحات نذكر ما يلي:

أولا : مقارنة التمايز الحضري (التمايز بين الأحياء الشعبية والأحياء الغنية):

تركز هذه المقاربة في الواقع على التباينات والمفارقات الصارخة في التجهيزات والمرافق، ونمط حياة المقيمين في الأحياء، كما ترى هذه المقاربة من جهة أخرى أن التوسع العمراني الضاحوي أدى إلى ظهور ما يمكن أن نسميه بالتمايز المجالي "la ségrégation spatiale" بين الأحياء الشعبية أو مناطق السكن الحضرية الجديدة "les zones d'habitat urbaines nouvelles" من جهة، وأشكال من التوطن الخارجي المفروض (المخارج الحضرية)، المتشكل من التعاونيات السكنية، وأحياء الطبقات المتوسطة والغنية من جهة أخرى.

إن هذا التمايز أمحي مع الوقت المفارقة التي كانت سائدة بين سكان الحضر القدماء، وسكان الحضر الجدد، مضيّفا مفارقة أخرى قائمة على التمايز المادي "المدخولات المادية"، هذا البتر والقطيعة بين المقيمين يأخذ عدة أشكال ومظاهر: "اللون الاجتماعي" الذي تتميز به الأحياء والذي يميز بين أحياء الفئات الميسورة والمتوسطة والفقيرة على صعيد التجهيزات ووسائل النقل، إلى غير ذلك من الوسائل التي يحتويها الفضاء المدني.

الإستخلاص الذي يمكن الخروج به إنطلاقا من عناصر تصور هذه المقاربة، وهو أن جزائر المدن الحالية، إنتقلت من التمايز الإثني الذي كانت كان سائدا أثناء المرحلة الكولونيالية الفرنسية (1) إلى التمايز الاجتماعي السائد اليوم على مستوى التفاوت النطاقي للفضاء المدني.

ثانيا: مقارنة اللاإندماج الحضري:

هذه المقاربة تركز على مسألة اللاإندماج الحضري الناجم عن تهميش المناطق السكنية وحرمانها من المرافق الحياتية الضرورية، كما تركز على الوضعية المأسوية المنجّرة عن اللاإندماج الحضري وإنعكاساته على مختلف الأصعدة، تتجسد الوضعية (اللاإندماج الحضري) أيضا إنطلاقا من مؤشرات سوسيواقتصادية محددة كالبطالة، تفكك روابط التضامن الاجتماعي، إضمحلال نمط العائلة الموسعة، تفشي الأمراض عبر الأحياء، غياب الخدمات العمومية،(*) كما يعكس هذا اللاإندماج الحضري جليا حالة الإغتراب الاجتماعي، وإضمحلال الروابط القائمة مع جماعة الأحياء والمجتمع المحلي، فالمرجعية للحي (الحومة) التي كانت تجسد في السابق العلاقة الحميمة (للحي) هي في مسار الزوال، إنتشرت عوضها حالة الأنومي في المجمعات السكنية التي هي في تحول واسع باستمرار.

ثالثا: أطروحة الإنشطار السوسيوميكاني:

(*) - إن التمايز الإثني الكولونيالي (الفرنسي) تزامن والثائية المجالية، فالمجمعات السكنية المشيدة كانت تقام عموما على محاور أربعة، تأخذ شكلا صليبيا تتوزع عبره الشوارع الرئيسية: مركز بريدي، البلدية، كنسية، مساحة خضراء أرصفة مفروسة بأشجار مصبوعة بالأبيض، فالكل يقدم مظهر النقاء والإنسجام، كان يقدم نقيضا واضحا مع مجال الأهالي في الضواحي والأطراف.

تقوم هذه الأطروحة على إعتبار الفضاء المدني فضاء إنشطارى يحمل في محتواه عدة وضعيات:

(أ) **التمايز النطاقي:** تتجلى هذه الخاصية بتمركز مجالي لفئات إجتماعية معينة في مجالات خاصة، حيث يلاحظ على سبيل المثال انعزال سكان الأحياء الراقية بالمدينة ضمن مجالات مميزة وخاصة، مع إقامة حدود نطاقيّة مادية ورمزية، نجم عن هذه الديناميكية الحضرية حسب "محمد مدني" **هيكلية التجمعات السكانية على قاعدة أروقة تسلسلية مع ثنائية الأطراف** بين التشكيلات الإجتماعية للطبقات الميسورة (منطقة "حيدرة" بمدينة الجزائر، منطقة "دالاس" بمدينة سطيف و"سانتھوبر بمدينة وهران") من جهة، والأجزاء المجالية المهمشة (الأحياء الغير الشرعية، والقصديرية المهمشة) التي تمثل مظاهر المدينة الغير الشرعية من جهة أخرى، (2) هذا يعني أن النسيج العمراني المشكل خلال مسار تحول المدينة، يتميز بظهور نمطين متمايزين وواضحين من الفضاء المدني، فضاء الأغنياء وفضاء الفقراء (3)، إنه **الفضاء المدني المجزأ** (4) "espace segmenté" الخاضع للإحتكار والمضاربة، تتوطن الفئات الميسورة في مجالات راقية بتجهيزاتها وخدماتها، وتهشم الفئات الفقيرة في فضاءات منغلقة على ذاتها، تغذيها ثقافة الحرمان والنشاط الإقتصادي الغير الرسمي، هذه الأخيرة (الفئات الفقيرة) تقيم علاقات محدودة وأدائية مع المدينة، إنها الوضعية التي تجسد الإنغلاق على الذات، اللأمتلاك المجال الإجتماعي للفضاء المدني إذا إستعرنا عبارة ب. هونري . ش. دولو (5).

(ب) **الطلاق والقطيعة بين مشروع العمران المخطط من قبل المنظرين والمقررين والممارسات السوسيو مجالية للفاعلين:**

لقد نجم عن هذا الإنقسام أزمة التمكن (la crise de L'habiter)، أزمة ذات دلالة معبرة وواضحة، وصفت من قبل الدارسين لها بحالة من حالات الإنشطار والتجزؤ المجالي، وتفاقم العلاقات بين المدينة والمجتمع (6)، يذهب بعض الباحثين أيضا إلى وصف الوضعية بحالة التمرد والعصيان التي تتبع من قبل ساكني المناطق السكنية الحضرية الجديدة (Les Z. H. U. N) مع مجالهم

المسكون، تغيير مستمر لعناصر المجال المبني، تعديلات مجالية (الشرفات) أو حذف مجالات داخلية (غرف الحمام)، المعنى المعطى لهذا التمرد هو الوصول إلى إعادة تملك المجال المبني، وتكييفه حسب الحاجيات والنمط الحياتي للعائلة... إلخ (7)، في حين تذهب دراسات أخرى إلى وصف حالة الأزمة (أزمة التسكن) في الإقامات الفردية من خلال صيرورة التغييرات التي يعرفها الإطار المبني (تغيير الطوابق الأرضية إلى مآرب تجارية) أو تحويل الوظائف الأولى التي تعرفها مناطق سكنية إلى مناطق تجارية برمتها (سواء أأكمل البناء أو لم يكتمل) مشكلة بذلك أقطاب تجارية بعدة مناطق ك: (الحميز، دبي، جسر قسنطينة، القبة القديمة... إلخ). (8)

ج) التولع بالمسكن الفردي: أصبح المسكن الفردي الوسيلة التي تسمح بالهروب من المجالات الاجتماعية المطبوعة بتدهور ظروف المعيشة والإقصاء الاجتماعي، إن الإنفراد بالمسكن الخاص يمثل مؤشر للتميز والنجاح الاجتماعي بالنسبة للفئات التي إستطاعت أن تتحصل على القطع الأرضية، أصبح المنطق السائد لدى البعض هو "الابتعاد قدر الإمكان من القطب السلبي الذي يحصر وينعت فيه الساكن في السكن الجماعي".

إن التعلق بالمسكن الفردي يمثل هاجسا يراود كل ساكن في المجمعات السكنية التي تعتبره العائلات التي عرفت حراكا اجتماعيا كمسكن عبور"، غالبا ما يتم بناء هذه القطع بطريقة غير مشروعة من طرف الملاك الجدد، وكم هي كثيرة في الساحل العاصمي، (خرايسية، سحولة، درارية، بئر توتة... إلخ). إن إنتشار هذه الممارسات أدّى إلى توسع سوق البناءات الغير مكتملة "marché des carcasses" منذ تفاقم الأزمة (9)، وبروز حزام حقيقي شكّله الأحياء السكنية التي ظهرت في المناطق الضاحوية، القريبة من المدينة، هذه الأخيرة أصبحت تتسع وتنمو من المحيط، أي خارج محيطات التعمير التي حددتها القوانين العمرانية.

وهكذا تجلت ظاهرة التولع بالمسكن الفردي مع الأزمة المتعددة الأشكال التي تعرفها المدن الجزائرية بصفة عامة ومدينة الجزائر بصف خاصة، تضاعفت هذه

الأزمة بشكل كبير مع ظهور على هامش المدن لتجمعات سكنية عفوية تحولت مع مرور الوقت إلى مناطق اللا قانون.

تعقيب:

لقد حاولنا من خلال هذا العرض المختصر تسليط الضوء على بعض مظاهر التحولات السوسولوجية التي عرفها الفضاء المديني، لقد إستكشفت جهات نظر بعض الباحثين، وضعيات مفادها أن المدن الجزائرية في توسعاتها وإمداداتها المجالية أنتجت خصائص مجالية، تمتد من حالات التمايز النطاقي للعرمان، التفكك والإشتطار المجالي، اللاندماج الحضري... إلخ.

إنها تناقضات المشروع العمراني في جزائر اليوم الذي عمق الإنقسامات المجالية وزاد من تهميش المجالات الفرعية، التي يعيش فيها أغلبية أفراد المجتمع، وهذا ما أعطى مظهر عام لفوضوية إنتاج المجال المبني، وغياب الضبط العمراني على مستوى هذا الفضاء.

إن الفضاء المديني سواء نظرنا إليه من الداخل أو من الخارج فإنه يقدم صورة عن ثنائية مجالية من حيث تكوينها وشكلها، هذه الثنائية كما رأينا رسختها الممارسات المجالية سواء النابعة من قبل الفئات الاجتماعية، أو من قبل هيئات التخطيط ذاتها أحيانا، واستنادا للرسم التخطيطي لتوزيع الفئات الاجتماعية، يلاحظ في الفضاء المديني احتلال المناطق الحضرية الجديدة وسكنات التعاونيات العقارية (الفيلات) الفئات الراقية (10)، والوسطى التي تكون في متناولها بحكم علاقاتها "النافعة"، في حين تشغل المجالات الفرعية لمهمشة الفئات الفقيرة، أما البيوت القصديرية فهي من نصيب النازحين وكذا الفئات الفقيرة التي تعيش اكتظاظا ديمغرافيا.

في هذه الحالة نحن أمام واقع يظهر إلى حد كبير الإخفاق في الممارسات المجالية، وهذا بالرغم من الإستراتيجيات المعتمدة في إطار المخططات العمرانية، وأدواتها التي أخفقت بدورها في ضمان حد معين من التحكم العمراني، الذي طغت عليه تناقضات مخططات التعمير الممارسة من قبل الدولة كما رأينا من جهة، والممارسات الغير الشرعية الآتية من الفاعلين الخواص، كليهما لا يمكن أن يحدثا

بدون أن يترك آثارا مجالية تتسم بالخصائص التي ذكرت سابقا (الإنشطار ،
الاندماج ، التفكك المجالي الخ...).

وهكذا يمكن أن نخلص إلى مقولة (ر.سيدي بومدين): هناك واقع متفق عليه
بين السلطة والفاعلين الاجتماعيين هو ذلك المتعلق بالإضطراب العمراني
الظاهر في الفضاء المديني ، إضطراب تشكل بفعل العمليات (الممارسات المجالية)
الغير المتناسقة ، المنقطعة والغير المكتملة منذ أربعين سنة". (11)

قائمة المراجع:

1- عدد خاص تقدم بانوراما واسع حول إشكالية المدن الجزائرية في تحولاتها
وأشكالها المتعددة من منظورات: أنثربولوجية، تاريخية، سوسيوإوجية، جغرافية،
حضرية... إلخ، مجلة إنسانيات.

- Insanyat, Villes Algériennes, n°05, aout 1998, Centre de recherche
CRASC, Oran, 1998.

2 -Abed Bendjelid et autres, Différenciations spatiales dans les
nouveaux espaces urbains d'Oran , Revue Insaniyat n°23,24, 2004,
Centre de recherche CRASC, Oran,p.p.7-44.

3- Mohamed MADANI, Villes Algériennes entre panne de projet et
urbanisme de fait, Revue NAQD n°16 ,Alger Ed : centre national du
livre,2002 , p.12.

4- R. Galissot,b.moulin, les quartiers de la ségrégation,in mohamed
madani,op.cit,p.12.

5- M. VERGES , La casbah d'Alger : Chronique de la survie d'un
quartier en sursis, Revue NAQDn°06, Alger, Ed : centre national du
livre,1994,pp36-43.

6- Paul Henry chambard de law, Appropriation de l'espace et
Changement social,Cahiers Internationaux de Sociologie, Paris,
P.U.F,Vol :IXVI Juin ; 1979, p.14.

7- Abed bendjlid et autres, op.cit,p.p. 7-44.

8- Abdelkader lakjaa,L'habiter Idenditaire :Elément pour une
problématique d'une urbanité en émergence,Revue Insaniyat n°2 ,
2004, Centre de recherche CRASC, Oran,p.p.77-103.

9- Rachid sidi boumedine, **Désordres urbains ou des ordres urbains**, Revue NAQD n°16, OP.cit p33.

10- Madani safar-zitoun, Alger: De la décomposition du foncier à la Recomposition Urbaine, communication présentée à la journée d'études sur la recomposition urbaine, ségrégation et métissage culturel tenue à Casablanca du 26 au 27/12/2001.

11- Rachid sidi boumedine, Désordres urbains ou des ordres urbains, Revue NAQD n°16, OP.cit, pp27-44.

12 - Ibid,p.43.